

الشعر

موضوع طالما تاقَت نفسي الى خوض عبابه وسلوك شعابه فتمنعي عنه شؤن تحسر النظر وتني اللسان بالحصر فاحجم حيث اريد الاقدام وادبر حينما احاول الاقبال واعود الى حكم العجز حتى زف اليّ البريد انيس الجليس فما وقع نظري على المقالة المعنونة « بالشعر عند الانكاي » حتى ثارت بي عاطفة الغيرة وانفجرت امامي ابواب الكتابة ورايت ان اقتني ذلك الاثر واذكر ما لدي من بعض الوصف والخبر

فالشعر ديوان العرب وبه تقييد اوابد الادب تنخرط في سلكه فرائده وتنظم بنفائس درره قلائده يجتلي الناظر فيه فرائد المعاني في احسن المقاطع والمباني ويبث المتأنق فيه حكمه بان من الشعر لحكمة . نعم والشعر لسان الزمان وخلاصة وصف اعمال الانسان تهذب به الاخلاق وتستثير القرائح وتشفي السخائم وتنبعث الهمم وتطيب المجالس وتقضي الحوائج والشعراء صيارفة اخلاق الرجال وسامسة النقص والكمال شهادتهم مقبولة وان لم ينطق بها سجل ولم يشهد بها عدل اسمهم ناطق بالفضل واسم صناعتهم مشتق من العقل فهم امراء الكلام يقصرون طويله ويطولون قصيره يقصرون ممدوده ويخففون ثقيله

ولولا خلال سننها الشعر ما درى بغاة الندى من اين توتى المسكارم والشعر قديم مصاحب لتاريخ اللغات وقد ذكر بعض مؤرخي العرب

اشعاراً نسبوها الى عاد وثمود وقطان وذلك منذ ٣٥ قرناً وهو لا يختص بلسان واحد بل هو موجود في كل لغة عربية كانت او اعجمية فقد نبغ من بين الفرس والرومان واليونان وغيرهم شعراء خدموا بلادهم وزمانهم خدمة لا تقدر فوائدها كموميروس اليوناني صاحب الابلادة الممتازة بوصف المناظر وسرد الوقائع ودقة التعبير عن العواطف والاشارة الى الفنون والعلوم والمعتقدات وحالة العمران القديم وادوات الحرب وذكر اسماء اولئك الملوك والابطال والمدن والاخلاق والعوائد والملابس والمأكول والمشرب وغير ذلك مما لم يحوه كتاب ضخيم عن اي عصر من العصور

وقد ترجمت هذه القصيدة الى كل لغات اوربا وقد ترجمها الى العربية حضرة المدقق الشاعر المطبوع سليمان افندي البستاني ثم فرجيل وهوراس الرومانيان ودانتي وطاسو الايطاليان والفردوسي الفارسي وغوتي وشيكر الالمانيان وماتون وشكسبير وبيرون وتنسون وغيرهم من الانكليز وفيكتور هيكو وموليير وراسين وبوالو من الفرنسيين

ولقد كان هذا الفن شريفاً عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم واخبارهم وشاهد صوابهم وخطائهم واصلاً يرجعون اليه في الكثير من فنونهم وحكمهم وانسابهم وتاريخهم وكانوا يتنافسون في انتحاله فيقفون بسوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على كبار الشأن واهل البصر حتى انتهوا الى المنافسة في تعليق اشعارهم بركان البيت الحرام موضع حجهم ونقطة امتلافهم كما فعل اصحاب المعلقة وهم امرؤ القيس والناطقة وزهير وعنترة وطرفة وعلقمة والاعشى وغيرهم فانه انما كان يتوصل الى تعليق شعره بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصيته ومكانه من هذا الفن

وظهوره فيه . ثم انصرف العرب عن ذلك اول الاسلام بما شغلهم من امر الدين والنبوة والوحي وما ادهشهم من اسلوب القرآن وبلاغته فسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً حتى اونس الرشد من الملة ولم ينزل القرآن بتحريم الشعر وحظره وسمعه النبي واجاز عليه كما كان من امر كعب بن زهير صاحب « بانت سعاد » ولقد كان صلى الله عليه وسلم يكثر التمثيل بقول طرفة بن العبد

سنبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالاخبار من لم تزود
وكان يضع لسان بن ثابت منبراً يقوم عليه يفاخر عن الاسلام حتى قال عليه السلام ان الله يؤيد حسناً بروح القدس ما ينافح او يفاخر والشعراء محترمون في كل زمان ومكان وحسبك مبالغة اليونان في تعظيم هوميروس حتى وضعوه موضع اله وعناية ملوك ائتنا باشعاره حتى جعلوها كتاباً واصبحت من ذلك العصر درساً قانونياً في المدارس العالية من لم يحسن حفظها عد علمه ناقصاً وتسابق الملوك والاعيان الى اقتنائها والتلذذ بقراءتها وانشادها وكان الاسكندر يحملها معه في اسفاره وحروبه اعتدداً بها واعتماداً على بركتها وكفناك حزن كسرى لقتل عدي بن زيد الشاعر الجاهلي من يد النعمان وكيف طارد هذا حتى قتله

ولقد كان الخلفاء يجيزون الشعراء ويقرّبونهم الى مجالسهم ويحرصون على اقتناء اشعارهم يطلعون منها على الاثار والاخبار واللغة والانساب والحكمة كما يدل على ذلك مسامرة الرشيد للاصمعي وابي نواس وغيرهما مع ما كان عليه من المعرفة بهذا الفن والرسوخ فيه ويروى انه لما مدحه ابو نواس بقوله

ليس على الله بمستكر ان يجمع العالم في واحد
ضرب براحته قبضة سيفه وقال لو لم أر في حكمي غير ما دعاك الى هذا القول الكفى
ولم تسكن ثورة المصريين على واليهم الخصب وتحقن دماء الالوف من العباد الا بقول ابي نواس رحمه الله

نصحتكم يا آل مصر نصيحتي ألا نخذوا من ناصح بنصيب
فان يك فيكم افك فرعون باقياً فباقي عصا موسى بكف خصب
ولقد كان الاخطل يدخل على عبد الملك احد خلفاء بني امية وعليه جبة خز وفي عنقه طوق من الذهب ويجلس في صدر المجلس بدون اذن وهم حاكم سرقسطة بغزوة فدخل عليه ابن باجه الشاعر الملحّن المغربي وانشد

جرّ الذيل ايما جرّ وصل الشكر منك بالشكر
فلما انتهى الى قوله

عقد الله راية النصر لامير العلي ابي بكر
طرب الممدوح كثيراً واقسم ان لا يمشي ابن باجه الا على الذهب الى داره يخاف ابن باجه سوء العاقبة واحثال بان جعل في نعله ذهباً ومشى عليه ولما مدح ابن هانيء جوهر القوائد عند سيره لفتح مصر بقصيدته التي مطلعها

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمع وقد راغني يوم من الحشر اروع
جمع جوهر اركان الحرب وقواد الجيش وامر بتلاوتها عليهم وكانت اول باعث في الجند روح الشجاعة والامل ولما تم فتح مصر على يديه امر

باحضاره لديه فلما حضر اكرمه غاية الاكرام وقال له اشفقت عليك لقولك
وان بنا شوقاً اليه ولوعة تكاد لها اكبادنا تتصدع

ولما مدح المعز بقصيدته التي منها

ياويلكم أفما لكم من صارخ الا بشعر ضاع او دين عفا
فمدينة من بعد اخرى تستبي وطريقة في اثر اخرى تعتنق
حتى لقد رجعت ديار ربيعة وتزلزلت ارض العراق تخوفا
فالشام قد اودى واودى اهله الا قليلاً والحجاز على شفا
غضب المعز وكاد يخنق غيظاً فلما انتهى الى قوله

فتربصوا فالله منجز وعده قد آن للظلماء ان تتكشفوا

هذا المعز بن النبي المصطفى سيذب عن حرم النبي المصطفى

علا وجهه الاحرار وقبض على حسامه وامر بجمع الرجال واعداد

الذخيرة فهزم الروم وردهم عن الشام

ولم يتول اسماعيل بن صالح احكام مصر الا لقوله

لعمرك ما اهويت كني بريبة ولا حماتي نحو فاحشة رجلي

ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلي رأبي عليها ولا عقلي

واعلم اني لم تصبني مصيبة من الدهر الا قد اصابني فتى قلبي

وكان المعلم ناجي الشاعر التركي الشهير محبوباً من جلالة مولانا السلطان حتى

انه حفظه الله اوصى انجاله الكرام بحفظ اشعاره ولما توفاه الله اصدر مولانا

الخليفة امره الكريم بان ينفق على جنازته ودفنه من الجيب الخاص وان

يدفن في تربة السلطان محمود . ولم يتخلص المرحوم عبد الله باشا فكري من

تهمة الاشتراك في الثورة العراقية ويعود الى شريف مكانته لدى المرحوم

توفيق باشا خديوي مصر السابق الا بسبب قصيدته التي مطلعها

كتابي توجه وجهة الساحة الكبرى وكبر اذا وافيت واجنب الكبرا

ولما كنت تلميذاً بمدرسة طنطا وكان عمري اذ ذاك ١٥ عاماً زارها

سعادة الهام محمد سعد الدين باشا مدير الغربية فقدمني لسعادته ناظر المدرسة

فاقترح علي تقديم نصيحة بالنظم لاخوتي التلامذة ففكرت قليلاً ثم انشدت

ياطالب العلم ونيل العلي قم باكراً عند طلوع الصباح

من قبل ان ترشف شمس الضحى ريق الغواصي من ثغور الاقاح

فطرب وصفق وكان هذان اليتان سبب صلي بسعادته الى الان

وحبستي ضابط المدرسة انتقاماً وظلماً فكتبت اليه

علام تعيني ولاي ذنب تعاقبني وتسلبني كتابي

اساءك اني بك لا ابالي واني لا اماري او احابي

ظلمت تشفياً مني وجهلاً اذا انت الاحق بهذا العقاب

فلما بلغت ناظر المدرسة هذه الايات اطلقني معزراً وامر بان لا تشملني

سلطة هذا الضابط

هذا قليل من كثير يضيق المقام عن ذكره فعلى القارىء مراجعة

الاغاني والعقد الفريد وطبقات الشعراء وغير ذلك من المجلدات الضخمة

المدونة فيها اخبار الشعراء والحافظه لهم مركزهم الشريف من الاجتماع

ولقد نبغ من بين ابناء اللغة العربية في هذا العصر كثيرون من مجيدي

الشعر ومبتكري المعاني ومعيدي شباب اللغة اليها ممن يفتخر العصر بهم

ويتباهى المشرق في مصر سماحة السيد توفيق البكري وشوقي بك وابراهيم

بك المويلحي واسماعيل بك عاصم واسماعيل باشا صبري و خليل افندي مطران

ومحمود افندي واصف واحمد افندي محرم والياس افندي فياض ونقولا افندي حداد ومحمد افندي محمد بالاوقاف وابراهيم افندي جمال المحامي والشيخ احمد ابو علي الازهري ومحمود افندي خاطر وغيرهم وفي الاستانة يوسف ضياء الدين باشا الخالدي القدسي وجميل افندي صدقي الزهاوي وعبد الجليل افندي براده النيني ومحمود افندي ذكي وسلاوي بك والامير شكيب ارسلان وغيرهم من تابعي الشام والجزائر وتونس والهند والحجاز وغيرها من البلاد التي ينشر القرآن فوقها ظله الوارف وبسطت على ارجائها اللغة العربية جناحيها الجميلين ولكن معظم هؤلاء الشعراء (وهم كثيرون غير من ذكرناهم) مقنصرون على استعمال نظمهم في سبيل الاستجداء والمديح والثناء والغزل فكادت تذهب الفائدة وانف منه لذلك اهل المراتب والمناصب والهمم كما سمعنا من ان سعادة الكريم اسماعيل باشا صبري لما بلغه خبر اهتمام شوقي بك بطبع نظمه ضمن (الشوقيات) ارسل سعادته لهذا يعتذر عن عدم رغبته في ان ينسب اليه نظم مع ما هو عليه من الدقة والبلاغة واسلوب العصر اما هو القائل

انما الارض والسماء كتاب فاقراؤه معاشر الاذكياء

ولكنهم معذورون في ذلك لقلة موارد ارتزاقهم وشدة احتياجهم الى النفقات فهم مضطرون لان يقتصروا في نظمهم على هذا السبيل وياليهم يعتاضون من ممدوحهم بشيء عما بذلوه من الوقت وثمان الزيت والورق على الانشاد والنظم فاغنياء الامة واكابر حكامها لا يعباون بالنظم ولا بالشعراء ولا يقدرونهم حق قدرهم من التبجيل والاحترام فالشعر في اعتبارهم لغو ومحنة والشعراء همل لا شرف لهم ولا فائدة فيهم ولذلك اصبح من يريد

الاتظام في عقدهم لا يتبدى في تقطيع بيت الابدع افراغ جهده في الحصول على مهنة اخرى يتناول منها حاجته المعاشية

فمن شعرائنا الطيب والحاكم والمحامي والقاضي والمترجم والجندي وهؤلاء طابت معيشتهم واستقامت حالتهم ونالوا ما كانوا يشتهون من وسائل الحياة مع ان اخوانهم في المبدأ والصناعة يتضورون جوعا وفاقة اذا سمعوا باكتشاف او اختراع وهموا باستطلاعهم لوصفه اقعدهم عدم وجود نفقات النقل واذا انقوا كتاباً او نظموا قصيدة وارادوا طبعها ليتداولها الناس لم يجدوا معيناً او نصيراً

الف احدهم قصيدتين دعا بهما الوطنيين الى تدارك حالهم وتقويم معوج امورهم فقدمها الى موظف كبير راثبه الشهري تسعون جنيهاً عساه يساعده على طبعها فلم يجب هذا العظيم الا بالرفض وتحذير الشاعر من الاشارة اليه في مؤلفه

وارسل آخر لاحد اغنياء المصريين وكان يتنزه بالاستانة حيثئذ قصيدة جاء في مطلعها

ذكرت فروق فسح دمي الصيب شوقاً وطار فؤادي المتلهب
وطن ارى مر العذاب اذا شغفت باهله يحلو لدي ويعذب
ثم تدرج في كلامه الى مدح هذا الغني والشكوى اليه واستجدائه فلم يعبأ بطلبه ولم يلتفت اليه

واعرف شاباً بلغ الان من العمر عشرين عاماً قضاها بين المحابر والدفاتر ودرس الفلسفة وعلم الاخلاق والتاريخ والمنطق وتضاع من اللغة العربية وألم بالفرنسوية عافت نفسه الخدمة في دوائر الحكومة فانشأ مدرسة في قريته

ومسقط راسه ونظم قصيدة تبلغ ابياتها تسعين بيتاً وطبعها ووزعها على بعض المديرين وكبار الاغنياء فلم يلبه احد فكتبت اليه

لا تنظم الشعر في هذا الزمان فما لناظم الشعر انصار واعوان
لو ان اجزءه تجديه منفعة ما خضتها وانا يا صاح ظمان
ومات لرئيس احد الادباء الموظفين ابن فرثاء هذا بقصيدة وقدمها

الرئيس فما كان منه الا ان رماها له وقال (هل شعرك يحبي لي ابني)

وعندي انه لا سبيل لترقية الشعر في مصر وتحسينه الا بتأليف جمعية من شبان مصر وافاضل النشأة الوطنية يرأسها سماحة السيد توفيق البكري او سعادة اسماعيل باشا صبري او غيرهما من كبار الشأن واهل اليسار تختص اعمالها وابحاثها بالشعر والحث على انتحاله او العمل بوصاياه وحكمه فالامير والجندي والطبيب والصانع والتاجر محتاج الى الحكم منبع السعادة في الدارين ويفتح فيها باب واسع للاقتراح وتقدر له جوائز ومكافآت مهمة كما تفعل الان مجلة انيس الجليس مع انها مجلة نسائية غير مطالبة بما لا يخرج عن حد شؤون المرأة وامورها . وبذلك يصف وجه الشعراء عن الحجل والمذلة وتستريح اقدامهم من السعي في طرق الابواب للاستجداء

ويشمل باب الاقتراح وصف الحرب - القمر - الشمس - الكهرباء - البخار - التصوير - الدعوة الى الاحسان - الاخلاق - العوائد - الحكم - كما كان يجري عليه فقيد الوطن بل الشرق المرحوم الشيخ نجيب الحداد ويجري عليه الان شوقي بك وغيره

أليس من العار ان تفتح جنودنا المصرية بلاداً بعد موقعة اهتزت لها اركان العالم ثم لا نرى شاعراً من نابغي الوطنيين هنا الوطن او وصف الجيش

وصفاً ينفث فيه روح الشجاعة والتسلية والرجاء

هذا واختم رسالتي بحث اغنياء الامة وكبار حكامها على احترام الشعراء ومكافأتهم على خدمتهم للانسانية والوطن ولهم برسول الله اسوة حسنة . وليعتبروا بما كتبه عبد الملك الى عامله الحجاج حينما بلغه انه لا يراعي الشعراء فقال :

« اما بعد فقد بلغني عنك ما كذب فراستي فيك واخلف ظني بك من اعراضك عن الشعر والشعراء فكانك لا تعرف فضيلتهم ومواقع سهامهم او ما علمت ان بقاء الشعر بقاء الذكر ونماء الفخر وان الشعراء طراز الدولة وحلاها وعنوان النعم وتمام المجد ودلائل الكرم وانهم يحضون على الافعال الكريمة وينهون عن الاخلاق الذميمة وانهم سنوا سبل المكارم لطلابها ودلوا العفاة على ابوابها فاستدرك فرط تفريطك وامح بصوابك عار اغاليطك »

ثم وليجتهد الشعراء في ترقية معانيهم وليتابعوا السير في طريقهم المحمود ولو نازعتهم النوازع ولهم اسوة بامرئ القيس الذي باد ذكر قبيلته واجداده وابقى ذكره شعره ثم ابن المعتز وابن فراس الحمداني ومحمود باشا البارودي (الجندي الباسل) واحمد عزت باشا الفاروقي الموصلي والامير عبد القادر الحسيني الجزائري وشبيب باشا وغيرهم من اصحاب المناصب والمعالى والسلام احمد الكاشف بالقرشية